الفصل الثاني

جهود محمد المبارك في إصلاح التعليم الجامعي وفق فلسفة التكامل المعرفي

حجيبة شيدخ[1]

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى تعرّف الجهود التي بذلها محمد المبارك في بناء تكامل معرفي في التعليم الجامعي؛ إذ إنه عاش في زمن احتدم فيه الصراع بين الفكر الإسلامي وفكر التغريب. فما الذي قدّمه المبارك في هذا المجال وقد كان مفكراً وسياسياً وداعيةً، وجامعاً بين الثقافتين: الإسلامية والغربية؟

وقد سلك هذا البحث منهجاً استقرائياً تحليلياً، وقُسّم إلى جزأين؛ الأول: التكوين العلمي للمبارك وعوامل التأثر والتأثير في صياغة شخصيته. والثاني: اشتغال محمد المبارك بالتعليم الجامعي، وترسيخه فلسفة التكامل المعرفي.

أولاً: بناؤه المعرفي وانعكاسه في التعليم

اهتم محمد المبارك بشؤون المسلمين، وبخاصة في المجال العقدي والتعليمي، وقد ساعده على الوعي بواقع الأمة طبيعة التعليم الذي تزوّد به؛

---

(1) دكتوراه في العقيدة الإسلامية، أستاذة محاضرة بجامعة الحاج لخضر- باتنة/ الجزائر.
البريد الإلكتروني:chadjiba@hotmail.com

إذ عاش في أحضان أسرة تميزت بالعلم والتقوى، فأخذ العلم على والده، وعلى أشهر علماء الشام في عصره الشيخ محمد الحسني. درس محمد المبارك في المدارس النظامية الحكومية، وفي المدارس القديمة على الشيوخ وفي الحلقات، ثم زاول تعليمه الجامعي بالجامعة السورية، وبعدها انتقل إلى جامعة السوربون فأخذ فيها الأدب الفرنسي إلى جانب علم الاجتماع، وهناك احتك بأكبر المفكرين والمستشرقين الغربيين في عصره، كما التقى بزعماء الحركات الإصلاحية والتحررية، ومنهم الأمير شكيب أرسلان، وزعماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبخاصة الفضيل الورتلاني. ولعل مراحل تعليمه وجمعه بين الثقافتين: الإسلامية والغربية، مكنته من الوعي بحقيقة الازدواجية في التعليم في البلاد الإسلامية ومخاطرها على واقع المسلمين ومستقبلهم.

وبعد عودته من الدراسة بفرنسا اشتغل محمد المبارك مدّة طويلة في التعليم، فبعد جلاء القوات الفرنسية عن سورية عام 1946م، عُيِّن المبارك عضواً في اللجنة الفنية للتربية؛ لوضع الخطط والمناهج التربوية والتعليمية، ومفتشاً لمادتي اللغة العربية والدِّين في سورية كلها، فساعده ذلك على الوعي المباشر بواقع التعليم بسوريا، وحقيقة الانفصال بين التعليم الديني والمدني بوصفه مخلفاً من مخلفات الغزو الفرنسي.

في عام 1954م أُسِّست كلية الشريعة في سورية، فشارك الأستاذ المبارك في وضع مناهجها، ودرَّس فيها كذلك مواد عدّة. وبعد مرض السباعي الذي كان عميد الكلية، تسلَّم الأستاذ المبارك عَمَادة كلية الشريعة عام 1958م إلى عام 1964م، ثمّ انتقل بعدها إلى جامعة أم درمان الإسلامية في السودان، وعمل فيها من سنة 1966م إلى سنة 1969م أستاذاً ومشاركاً في التخطيط، ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية، ثم انتقل بعدها إلى السعودية بناءً على طلب من وزير المعارف السعودي، فعُيِّن أستاذاً ورئيساً لقسم الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة مدّة أربع سنوات، ثم عُيِّن أستاذاً باحثاً ومستشاراً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وكذلك في الجامعة الأردنية.

لقد عايش محمد المبارك سيطرة التيارات الفكرية المختلفة؛ الماركسية، والعلمانية، والوجودية على العالم، وغزوها للعالم الإسلامي. ولاحظ سيطرة الفكر الغربي على التوجه العام للتعليم المدني بكل مستوياته، كما لمس مظاهر تراجع التعليم الديني منهجاً وهدفاً، فكان ذلك من دوافع اهتمامه بالتكامل المعرفي في التعليم عموماً، والتعليم الجامعي بصفة خاصة، فهو يقول: "إن هذا الازدواج وجد منذ أوائل هذا العصر وبقي حتى الآن، وتجلّى في مثل الأزهر والجامعات في مصر، وفي الزيتونة والمعاهد والجامعة في تونس، وفي القرويين، وبالمدارس والجامعات في المغرب، وفي الكليات والمعاهد الدينية وما يماثلها في المملكة العربية السعودية إلى جانب المدارس الرسمية وجامعة الرياض."[2]

يعتقد محمد المبارك أن الازدواجية في التعليم بلاء على المسلمين، لما ينتج عنها من عقليتين مختلفتين: إحداهما دينية، ولكنها قديمة في تفكيرها وأسلوبها، وهي منعزلة عن الحياة ضعيفة التأثير فيها. وأخرى مدنية أو علمانية، ولكنها غنية في تفكيرها، جديدة في أسلوبها، وهي متصلة بالحياة ومشكلاتها، وممسكة بزمام التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي، وكلتاهما لا تخدم حاضر أو مستقبل الإسلام والمسلمين؛ إذ تؤدي إلى إضعاف الدين، والتقليل من شأنه، وتشويه الصفة الأساسية التي تتصف بها الحضارة الإسلامية، وهي الوحدة والتوحيد، ونفي الازدواج والإثنية التي هي مصدر بلاء الحضارة المسيحية الأوروبية.

لقد اهتم محمد المبارك بالتعليم اهتماماً واسعاً في مسيرته الإصلاحية، فتجده يحلل وضع التعليم في العالم الإسلامي بعقلية ناقدة مُصلحة، كأنه مارس التعليم في جميع البلاد الإسلامية؛ فقد عاين جميع مواطن الخلل في التعليم وطرقه، واقترح الحلول الناجعة لها.

---

(2) المبارك، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**، بيروت: دار الفكر، 1970م، ص137.

وعن تجربته في التخطيط الجامعي، يقول المبارك: "وأتيح لي في المجال الفكري والجامعي أن أعمل في التخطيط الجامعي للدراسات الإسلامية فاشتركت في التخطيط لكلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم في التخطيط للأزهر بتكليف شخصي من رئيس المجلس التنفيذي (مجلس الوزراء) للجمهورية العربية المتحدة، فوضعت تقريراً في أسس التطوير، ثم اشتركت بعد ظهور القانون في وضع خطط كليات الأزهر (1960م)، واشتركت بعد ذلك في وضع نظام الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وخططها ومناهجها، بصفتي عضواً في مجلسها الاستشاري الأعلى، وفي كلية الشريعة في مكة، وأخيراً في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان، كما دعتني جامعة طهران في زيارة لإيران، فسنحت لي المجال للاطلاع على معالم الثقافة الإسلامية فيها فاطلعت على كلية المعقول والمنقول (أصبحت تسمى الآن كلية الإلهيات والثقافة الإسلامية) وعلى بعض جوانب الثقافة في الجامعة الإيرانية."[3]

لقد سجّل المبارك تجاربه في مجال التعليم في كتبه، حتى يدرك القارئ أن ما كان يقدمه من أفكار، ليست أفكاراً باردة ولدت بين الكتب والأوراق، ولكنها أفكار عاش في أجوائها الحية، لامست حياته وخامرت عقله وقلبه.[4]

ثانياً: تقويم المبارك لحال التعليم عند المسلمين، وموقفه من الازدواجية

تحدث محمد المبارك في كتبه عن تاريخ التعليم عند المسلمين، وخصائصه في عهوده المختلفة إلى غاية زمنه، فقد ازدهر وتنوعت آفاقه انطلاقاً من القرآن والسنة في القرون الأولى للهجرة، وأتاحت له المعارف القرآنية إنارة السبيل للأخذ بضروب المعرفة الدنيوية إلى جانب معرفة الدين، واقتنع العلماء المسلمون بوجوب كل علم يحتاج إليه المسلمون في دينهم ودنياهم وجوباً كفائياً. فأدى ذلك إلى ازدهار مختلف العلوم الشرعية، إلى جانب علوم

(3) المرجع السابق، ص23، 24.

(4) المرجع السابق، ص24.

obeikandl.com

الرياضيات من الحساب والجبر والهندسة والكيمياء والميكانيك، والطبيعيات كالبصريات وغيرها، والطب والصيدلة والعقاقير والنبات والفلك، والجغرافيا وعلوم كثيرة كان بعضها من مبتكرات الحضارة الإسلامية. وهذه العلوم كانت تتوسع ويأتي فيها العلماء بالجديد، ولكنها جميعاً كانت موجهة بضوابط القرآن الكريم والسنة النبوية.[5] واستمر الإبداع والابتكار في جميع مجالات المعرفة وفروعها من علوم الدين والدنيا معاً، وكانت متصلة غير منفصلة، ومنسجمة غير متنافرة. واستمر ذلك إلى نهاية القرن العاشر الهجري؛ إذ قلّ الإبداع وظهر التقليد، وقلّت العناية بالعلوم العقلية إلا في حدود ضيقة، وأهملت العلوم الطبيعية والرياضية، وغلبت صفة الجمع والتقليد على المؤلفات. وهذه الحالة التي آل إليها حال التعليم الإسلامي هي التي كانت قائمة حين واجهنا الغزو الفكري الغربي. لقد كان الفكر الغربي يتميز في ظاهره ببريق التمدن والتحضر، ولكنه في باطنه تحطيم لثقافتنا وقيمنا، وقد وفد إلينا عن طريق اتصال الدولة العثمانية ومصر بمدنية فرنسا، ثم عن طريق موجات الاستعمار. وبعد أن حقق المجتمع الإسلامي استقلاله، كانت الثقافة الغربية قد بنت لها جذوراً في المجتمعات الإسلامية. ولأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، فقد كان هناك انبهار بالغرب عند كثير من المسلمين، الذين حاولوا إصلاح حالهم بما هو أجنبي. ولكن، أنّى لهذا أن يفيد؟ "لقد استفاد مجتمعنا العربي خاصة والإسلامي عامة بدم أجنبي، غريب ليتحرك وينهض، فتحرك ونهض، ولكن بنبضات ذلك الدم الغريب، فكانت نهضة ولكنها اقترنت بآفات جديدة لم تكن معروفة، فتعاقبت علينا بعد لقاء الشرق بالغرب خلال قرنين من الزمن، ألوان من المذاهب والفلسفات فأخذنا من كل بطرف."[6] وقد كان التعليم ومحتواه من أهم مظاهر تبعية المسلمين للغرب.

---

(5) المبارك، محمد. **بين الثقافتين: الغربية والإسلامية**، بيروت: دار الفكر، 1980م، ص18.

(6) المبارك، **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**، مرجع سابق، ص17، 18.

obeikandi.com

عرفت المجتمعات الإسلامية الازدواجية في التعليم في بداية القرن التاسع عشر؛ إذ وجد فيها نظامان للتعليم؛ أحدهما نظام إسلامي كان موجوداً من قبل، استمراراً لتاريخ التعليم الإسلامي. أمّا الآخر فهو نظام غربي منقول، تُضاف إليه بعض المواد التدريسية، كالدين واللغة العربية. والنظام الحديث تشرف عليه الحكومة من ميزانية الدولة في كل بلد، سواءً في أثناء الاستعمار أم بعده؛ إذ نهجت الحكومات التي تولت الحكم بعد الاستقلال السياسة نفسها، وقد كانت قوة الحكم وميزانية الدولة والفتنة بقوة المستعمر وحضارته الآلية، والمناصب المفتوحة سلاحاً يتقوّى به النظام التعليمي المدني. أمّا النظام الإسلامي فقد تقلّص، وعزلته الحكومات غالباً عن المجتمع، وتقلّص الدور المخصص لخريجيه، حتى غدا مقصوراً على الوظائف الدينية من: إمامة، وخطابة، ووعظ، وإفتاء. واستقر النظام التعليمي في البلاد الإسلامية على التقاء نظامين: أصلي موروث وغربي مستورد، ويجري الصراع بينهما بشروط غير متكافئة.

يرى محمد المبارك أن الموقف من النظامين دقيق، وذو حدين وطرفين متباينين؛ إذ يحتوي النظام القديم على جزء ضخم من الثقافة الإسلامية ذات المصدر القرآني أياً كانت طريقتها، وبسبب هذه الميزة حاول المعادون للإسلام والمتأثرون بالثقافة الغربية إضعاف هذا التعليم، وصرف المسلمين عن التفكير في إحيائه وتجديده؛ إذ من سلبياته أنه يحمل سمات القرون الأخيرة من الثقافة الإسلامية التي تميزت بالجمود في الأسلوب، والعناية بالجزئيات، والإهمال للكليات، ودراسة الفقه على أساس مذهبي، والإغفال لما كان يعتني به المسلمون من الرياضيات والعلوم قديماً ولمنجزات العلوم الحديثة. وإذا كانت هذه العيوب قد دفعت بالغيورين على الإسلام إلى محاولة التجديد، فإنها كانت ذريعة لمهاجمة هذا النظام، ومحاولة إلغائه من أتباع الفكر الغربي. أمّا النظام الحديث فهو كذلك يحمل إيجابيات وسلبيات؛ فمن إيجابياته أنه يحمل جزءاً مهماً من الثقافة في العلوم الطبيعية والرياضيات، وهو كسب للحضارة الإنسانية، كما أنه يحمل كثيراً من الحقائق العلمية في مجال العلوم الإنسانية، مما هو نتيجة إحصاء لوقائع،

واستخراج لسنن اجتماعية في مجال الاقتصاد والسياسة وغيرهما. وهذا الجزء مما يستفاد من تحصيله، والأخذ بما هو مفيد من مناهجه في البحث وأساليبه في العرض. إلا أن هذه المزايا يجب أن لا تكون مسوّغاً للدفاع عن هذا النظام، والدعوة إلى الأخذ به كله، لما هو مدسوس فيه من فلسفات وعقائد هي وليدة الحضارة الغربية، ونتيجة ظروفها الخاصة.(7) لقد اهتم المبارك بتحليل مواطن الخلل في النظامين معاً، كما اهتم كثيراً بتوضيح الآثار السلبية للتعليم المزدوج؛ فإذا كان التعليم يهدف إلى حماية ثوابت الأمة من الانحلال والذوبان، فإن التعليم المزدوج يؤدي إلى خلق عقليتين مختلفتين في المرجعية وطرق التفكير. ولاحظ المبارك النتائج السلبية والخطيرة لازدواجية التعليم؛ إذ أصبحت التخصصات كالجزر المنفصلة عن بعضها في جامعات الدول الإسلامية، وأصبح الجامعي يدور في مجال اختصاصه، ولا يكاد يفقه شيئاً عن العلوم الأخرى، وخاصة علوم الشرع، مما أدى إلى نتائج سلبية على صعيد الرؤية الفكرية للأجيال الجديدة.

ومما زاد الوضع تأزماً أن عدداً من رواد التعليم الجامعي والحركة الثقافية في العالم الإسلامي، قد تبنوا المناهج والفلسفات الغربية بشكل كامل، وأصبحوا يروّجون لآراء أساتذتهم الغربيين، ويتبعون خطواتهم، ويترجمون كتبهم، ويأخذون بنظرياتهم، ويكوّنون على أساسها أجيالاً يزداد بهم جيش الثقافة الغربية،(8) ولذلك يرى ضرورة إعادة النظر في صياغة مختلف العلوم من منطلقات إسلامية، فهو يقول: "إن التاريخ والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية والعلوم الحقوقية وسائر العلوم الإنسانية، يجب أن تنطلق من منطلقات إسلامية وتقوم على مفاهيم إسلامية، وتكون أهدافها جميعاً أهدافاً إسلامية، ولا نستثني من ذلك العلوم الطبيعية التي أُشربت حالياً نظريات إلحادية أقحمت فيها، وليست هي منها ولا وليدة مخابرها ولا ومراصدها، وإنما هي وساوس أصحابها وأهواؤهم، دسوها في العلوم وصبغوها بها. وهذا التحويل

---

(7) المبارك، **بين الثقافتين: الغربية والإسلامية**، مرجع سابق، ص13-17.

(8) المرجع السابق، ص85.

حينما يتم في نظام التعليم الحديث من نظام غربي مستورد، مبني على نظريات وفلسفات وعقائد باطلة وزائفة ومنحرفة، إلى نظام إسلامي من حيث الأسس والأهداف، تحل آنياً مشكلة الازدواج واختلاف العقليات والتناقض الاجتماعي وفساد الاتجاه واختلاف السياسات والنظم، ويقوم العالم الإسلامي مرة أخرى بدوره الحضاري والإنساني والتاريخي لما فيه سعادة الإنسانية جمعاء.(9)

ثالثاً: الخطة المقترحة لبناء تكامل معرفي في الجامعات ووسائل تحقيقها

يرى المبارك أن حل مشكلة الازدواجية يكون بإقامة نظام إسلامي موحد مبني على تعدد الاختصاصات، لا على تعدد العقليات والمصادر الحضارية؛ إذ يجب أن يدخل الإسلام إلى الجامعات دخولاً طبيعياً صحيحاً فتُقام على أسس إسلامية، كما ينبغي أن تُقام المدارس والمعاهد الإسلامية العالمية على أسس جديدة، فيوصل بينها وبين منابع الإسلام الأولى من جهة، وبينها وبين الحياة من جهة أخرى، وتستفيد من تجارب البشر، وتطور العلوم، وتحسّن الأساليب، حتى تصبح هذه وتلك على مستوى واحد من التطور والرقي والمرجعية لتنتج عقلية واحدة هي العقلية الإسلامية.(10) ولتحقيق ذلك، يرى ضرورة وضع خطة تجعل الطالب الجامعي في العالم الإسلامي يعيش داخل إطار الثقافة الإسلامية، أياً كان تخصصه. وقد اقترح أن تكون دراسات إسلامية مشتركة بين جميع التخصصات، وفي جميع الجامعات العربية والإسلامية، ثم اقترح الدراسات الإسلامية المناسبة لتخصصات محددة. وقد صاغ المبارك إطاراً واضحاً لتحقيق التكامل المعرفي، وهو على النحو الآتي:

1 - الدراسات الإسلامية المشتركة

ويهدف هذا النوع من الدراسات إلى إعطاء القدر الضروري المشترك من

---

(9) المرجع السابق، ص51، 52.

(10) المبارك، **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**، مرجع سابق، ص146.

obeikandi.com

الثقافة العامة، التي يجب أن يتزود بها كل طالب جامعي في البلاد الإسلامية، ليغدو ذلك أساساً لثقافته، ومفتاحاً لفهمها، ولتكوين المناخ الثقافي العام المشترك، وتكوين بنية الفكر والمقومات النفسية والخلقية المتولدة عنها. ويرى أن هذا يكون مقابل الأنظمة العقدية الأخرى التي تسود العالم. وقد حصر محمد المبارك هذا القدر المشترك في أصلين:

الأصل الأول: تكوين فكرة شاملة متكاملة عن الإسلام، بدءاً من النظرة العقدية المتضمنة لمفهوم الله والكون والإنسان في القرآن، وصلة هذه المقومات ببعضها. ثم الحديث عن مصدري المعرفة في الإسلام: (العقل والوحي)، وكل ما يتعلق بهذا الأخير من حديث عن النبوات والغيبيات مستخرجة من القرآن والسنة النبوية، من غير تعرض للآراء والمذاهب. ثم تكوين فكرة عن مبادئ الإسلام الأخلاقية ونظمه التشريعية، وأهدافه في المجال الأسري والسياسي والاقتصادي، ومع إعطاء فكرة موجزة عن الحضارة التي تنبثق عن هذه المبادئ في صورتها المجردة لا التاريخية.[11] وقد اقترح أن تسمى هذه المادة "نظام الإسلام".

الأصل الثاني: من الضروري أن يكون لدى الجيل الناشئ من أبناء البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة، فكرة عن العالم الذي ينتمي إليه، ويشاركه في الخصائص والأهداف والقيم والأفكار وتاريخه ومستقبله المشترك، وما يواجهه من تحديات وكيفية مواجهتها؛ إذ ينبغي أن تكون هناك معرفة علمية صحيحة مستوعبة، وذلك للتخطيط والتعاون، والتمكن من تحقيق المجتمع الإسلامي المثالي، وفقاً لأسس الحضارة الإسلامية وخصائصها واقترح أن تسمى هذه المادة "حاضر العالم الإسلامي" أو "المجتمع الإسلامي المعاصر."[12] وقد أقرت هاتان المادتان في الجامعات الإسلامية لأول مرة بعد اقتراح المبارك لهما.[13]

---

(11) المبارك، **بين الثقافتين: الغربية والإسلامية**، المرجع السابق، ص151، 152.

(12) المرجع السابق، ص153، 154.

(13) جرار، حسني أدهم. **محمد المبارك العالم والمفكر والداعية**، عمّان: دار البشير، 1988م، ص65.

2 – الدراسات الإسلامية المناسبة لتخصصات جامعية محددة

يرى محمد المبارك أن الثقافة الخاصة بأية أمة من الأمم تبرز في مختلف تخصصات الدراسة، وإن كانت تجلياتها في مجال العلوم الإنسانية أوضح. أمّا غيرها من الفروع العلمية فإنها لا تخلو من التلون بلونها. وقد اقترح لكل تخصص ما يناسبه من الدراسات الإسلامية:

أ – كليات الآداب:

– قسم اللغة العربية: دراسة أدبية للقرآن والحديث، مع مدخل لعلوم كل منهما.

– الحضارة الإسلامية: تاريخها، وآفاقها، ومعالمها.

– قسم التاريخ: التاريخ الإسلامي "في جميع القارات والبلدان والعصور"، والحضارة الإسلامية، وعلوم الحديث، ومنهج المحدثين في النقد والتحقيق.

– قسم الجغرافيا: جغرافية العالم الإسلامي (الطبيعية، والبشرية، والسياسية)، والجغرافيون المسلمون.

– قسم الاجتماع: علم الاجتماع (بصياغة إسلامية).[14]

– المجتمع الإسلامي المعاصر.

– النظام الاجتماعي في الإسلام.

ب – كليات التربية: وفيها يُدرّس:

– تاريخ التربية الإسلامية، والتربية الإسلامية.

– أسس تدريس الدين والثقافة الإسلامية.

---

(14) ينظر بعض المفكرين إلى العقل بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة، ويرى آخرون –ومن بينهم المحرر– أن العقل أداة من أدوات المعرفة.

ت – كليات التجارة والاقتصاد: ويُدرَّس فيها فقه المعاملات بصورة موجزة والأبواب الأساسية، وأصول الفقه بصورة موجزة ومبسطة، والاقتصاد الإسلامي، واقتصاديات العالم الإسلامي.

ث – كلية الحقوق: ويُدرَّس فيها فقه المعاملات، وفقه الأحوال الشخصية، وفقه العقوبات أو الحقوق الجنائية الإسلامية، والحقوق الدستورية والدولية في الإسلام، وأصول الفقه.

ج – كليات العلوم والطب: وفيها حديث عن نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان وأثرها في التقدم الفكري والعلمي. وحديث كذلك عن قضايا طبية شرعية وإسلامية عامة.(15)

إن هذا التخطيط الذي وضعه محمد المبارك يؤكد لنا الجهود المعتبرة التي قام بها هذا المفكر الإسلامي في سبيل القضاء على ازدواجية التعليم في الجامعات، وقد كان حريصاً على ضرورة تطبيقها، وقد عبّرت مؤلفاته عن هذا الحرص، فجاءت لتكشف عن رؤيته الواضحة تجاه التكامل المعرفي، ومن أهم هذه المؤلفات:

نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)، ونظام الإسلام (الاقتصاد)، ونظام الإسلام (الحكم والدولة)، والأمة العربية في معركة تحقيق الذات، والفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، والأمة والعوامل المكونة لها، وذاتية الإسلام، المشكلة الثقافية، ونحو وعي إسلامي، والإسلام والفكر العلمي، والمجتمع الإسلامي المعاصر، وجذور الأزمة في المجتمع الإسلامي، ونحو صيغ إسلامية لعلم الاجتماع.

وإلى جانب التخطيط لكيفية تدريس العلوم الإسلامية في مختلف التخصصات، اهتم المبارك بالتخطيط للدراسات الإسلامية المتخصصة، وقد ركز على ضرورة اختيار أحسن الطرق والأساليب لتعليم الدين وإدخاله في النفوس.

---

(15) المبارك، **بين الثقافتين: الغربية والإسلامية**، مرجع سابق، ص155، 156.

ورأى مبارك أن هناك وسائل عديدة، وطرقاً مفيدة وناجحة تحقق التكامل المعرفي في الجامعات، وتقضي على الازدواجية في التعليم، أهمها:

أ - ضرورة إعادة صياغة العلوم الإنسانية من منطلقات إسلامية، وإفراغها من المحتوى الفلسفي الغربي.

ب - تقارير تفصيلية عن الوضع الثقافي في كل بلد إسلامي، يتم على أيدي متخصصين، ثم تأليف لجان تخصصية يضعها مؤتمر إسلامي عام، يعقد لشؤون التربية والثقافة خصيصاً، لتضع كل لجنة الخطة التفصيلية لكل جوانب النظام الثقافي السائد.

ت - إقامة مؤتمر إسلامي عام لشؤون التربية والتعليم والثقافة، يناقش الخطط ويقرها في شكلها النهائي.

ث - اتخاذ الوسائل الحيثية، لإقناع حكومات البلاد الإسلامية بالأخذ بهذه الخطط بعد القيام بالدعاية لها في الرأي العام الإسلامي.[16]

ج - مراجعة الكتب التي تدرس للطلبة في العلوم البحتة، التي اصطبغت في أسلوب عرضها بصبغة الفلسفة المادية الإلحادية، وتنقيتها من بعض النظريات التي لا تدخل في الأصل في نطاق العلوم، وإنما هي من باب الافتراضات والتخمينات، مثل نظرية أصل الكون، وأصل الإنسان، أو أن تعرض مرفقة بالانتقادات الواردة عليها.

لقد كان محمد المبارك مدركاً لخطر ازدواجية التعليم في البلاد الإسلامية. والخطة التي قدمها لإقامة تكامل معرفي في الجامعات تقوم على إدخال بعض المقاييس الأساسية من العلوم الإسلامية إلى جميع التخصصات في الجامعات، وذلك لتأطيرها بسياج من الدين يحميها من الذوبان في الفكر الغربي، وهو مع ذلك كان مدركاً تماماً أن هذا ليس كافياً؛ لأن مجمل العلوم التي تُدرَّس في

---

(16) المبارك، **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**، مرجع سابق، ص152.

الجامعات العربية والإسلامية تنطلق من منطلقات غريبة عن الدين الإسلامي، وعليه، فلا بدّ من تجنيد فئة من المفكرين المخلصين القادرين على تحويل الثقافة الفكرية الحديثة في مجالات العلوم النظرية ذات الصلة التوجيهية والعقدية، إلى الاعتماد على الدراسات الأصيلة المنبثقة من القرآن والسنة النبوية، وهذا يحتاج إلى وقت طويل.

خاتمة

ساعدت على تكوين شخصية محمد المبارك مجموعة من العوامل، أهمها: الأسرة التي كانت تتميز بثقافتها العلمية والدينية، إلى جانب تتلمذه على أكبر علماء عصره في الشام: الشيخ الحسني، وكذلك اتصاله برجال الحركات التحررية والإصلاحية في العالم الإسلامي من مثل شكيب أرسلان، ورجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وكان لسفره إلى فرنسا للدراسة، واتصاله برجال الثقافة الغربية من مفكرين ومستشرقين تأثير كبير في تكوين شخصيته الناقدة للفكر الغربي؛ إذ لم ينبهر بالغرب، بل ازداد وعياً بتهافت الفكر الغربي، ومعرفة مواطن القوة في الإسلام، أدّى به إلى الدعوة إلى ضرورة أسلمة العلوم الإنسانية، وبخاصة علم الاجتماع .

إن هذا الوعي بحقيقة الثقافة الغربية جسده المبارك في كتبه التي كان هدفها -في الغالب- إظهار محاسن الإسلام، ونظرته الشمولية المتكاملة عقيدة وشريعة، كما جسّده في جهوده في إصلاح التعليم، وبخاصة التعليم الجامعي. ولعل من أهم ما قدمه المبارك في هذا المجال التخطيط لإدخال الدراسات الإسلامية إلى جميع التخصصات والمواد التي اقترحها للتدريس بها، وهذا يحتاج إلى جهد كبير وتخصص دقيق. ويبقى البحث في هذا الموضوع غير مكتمل لعدم توافر المصادر والمراجع التي تحدد بتوسع أكثر تجربة محمد المبارك في كلية الشريعة بجامعة دمشق، كما يبقى محمد المبارك من الشخصيات التي لم تبحث جهودها -حسب علمي- في مجال إسلامية المعرفة، وهو من أهم الدعاة إلى ذلك.